لم تكن هذه هي المواجهة الأولى من نوعها مع زوجة أبيه. فقَبْل أربع سنوات، وفي ذكرى أول عيدِ جلاءٍ يمرّ بسورية، حمله خالُه معه إلى مدينة حلب. وبعد يوم أو يومين دَفَعَه إلى غرفة في الفندق، حيث تنزل زوجةُ أبيه وأقرباؤها. كان أبوه آنذاك في دمشق. وحين حضر مساءَ ذلك اليوم من سفره سُوِّيتِ المشكلةُ ببقاء حامد مع أخيه عبد الرحمن وزوجة أبيه حتى آخر يومٍ من أيام زيارة حلب. كيف سُوِّيتِ المشكلة؟ لا يهمّ. التسوية تمت بين الأب وزوجته.

*

على الرغم من كل شيء فَرِحَ عبد الرحمن بوصول أخيه حامد. وَضَعَ كلٌّ من الأخويْن يده في يد الآخر. ابتسما. توجها إلى «حمّام الرجال».

عَبَرَ حامد بوّابة الحمّام الخشبيّة المنخفضة. استقبله الظلامُ وبخارُ الماء الحار ورائحةُ الكبريت الشبيهة برائحة البيض الفاسد. تقدَّم حافياً نحو المشاجب الرطبة. كان هناك نثارُ ضوءٍ خافت ينوس من مصباحٍ غائم، فينفث في الجوّ سحراً. خلع حامد ثيابه. تعرّى إلا قليلاً. وَقَفَ على دكّة البلاط الأبيض المتصلة بحوضِ الماء المربع. الماء الأخضر الداكن الرجراج أخفى أجسامَ المستحمين، وأبقى على رؤوسهم المبللة. رجع حامد إلى الوراء خطوتين، ثم قفز على شكل قوسٍ، قمتُه إلى الأعلى. غاصت يداه، ثم ذراعاه، ثم جسمهُ كلُه في الماء. انطلقتْ في أثره أمواجُ الماء دوائرَ دوائرَ متتابعةً من المركز إلى الأطراف. دوائر التجعُّدات اصطدمتْ بأطراف الحوض، قبل أن تَخْمد أو تختلط بأمواج الآخرين.

بين الانقذاف والانغماس والارتطام بالهدف مشاعرُ كثيرة. مشاعرُ إحساسات البشرة والمخيلة حين الاحتكاك بالهواء، ثم بالماء، ثم بالمادة الصلبة. «هل ذلك هو جماع مشاعر الحياة الدنيا»، تساءل حامد حين استقر في القاع؟

سوريا

الزّربيّـــــــة

الأزهر الصحـــراوي

لمّا وصلنا قاعةَ الاجتماعات خيَّرَنا أحدُ المهتمّين بمسائل التنظيم، وقد كان منتصباً بقامته الضّخمة أمام الباب الكبير، بين الدّخول إلى القاعة أو الانتظار خارجها، لأنّ موعد وصول الوزير سيكون بعد ساعة تقريباً. فظهر الاختلاف بيني وبين شقيقتي: فقد آثرتِ الدّخولَ لتريح قدميْها من الآلام الّتي سبّبها ضيقُ حذاء جارتنا الّذي استعارتْه منها هذا الصبّاحَ، واخترتُ الانتظار خارج القاعة لضيقي بالأماكن المغلقة. فانصاعت إلى رغبتي مكرهةً. ولأتجنّب بذاءة لسانها تهالكتُ على أوّل مقعدٍ اسمنتيّ اعترضني في الحديقة الصغيرة المواجهة لقاعة الاجتماعات مباشرةً. فجلستْ حذوي، ثمّ جعلتْ تخلع الحذاءَ وتلامس قدميها وهي تقول: «ترى أين تتصوّرهم سيعرضون تلك النماذجَ المختارةَ من إنتاج الفتاة الرّيفيّة؟ وكيف ستُعْرض زربيّتي؟ وما هي الجوائز التي ستُسند إلى الفائزات»؟. تجاهلتُ أسئلتها لانشغالي بقراءةِ تحليلٍ مستفيضٍ كتبه أحدُ الشّعراء المعروفين... ولمّا حدستُ أنّها ما تزال تنتظر إجابةً، قلتُ لها: «ستعرفين كلَّ ذلك بعد نصف ساعة». ولم أعرفْ أنّي قد فتحتُ على نفسي أثناء تلفّظي بهذه الكلمات البسيطة باباً لم أَقْدرْ على غلقه؛ فقد جعلتْ تحدثني بحماسٍ بادٍ وهي تقول: «لقد أنفقتُ في نسجها سبعةً وسبعين يوماً، فلا أفارقها إلاّ للنوم أو لقضاء بعض الحاجات الملحّة. فكم هو العمر بربّك!؟ عليك أن تتخيّل أنّك قضيْتَ سبعة وسبعين يوماً في إنجاز شيءٍ ما حتّى تسلّم بأهميّته». فانفلتتْ منّي ضحكةٌ ساخرة قطعتْ عليها حديثَها، فسكتتْ هنيهةً، ثمّ استأنفتْ تقول بعصبيّة: «لو كنتَ تعلم يا زميم الملاعين أنّ فيها قَبساً من روحي، وأنّي جعلتُ فيها كلَّ شيءٍ بمقدارٍ، لفهمتَ مقصدي. فقد جعلتُ طولَها متريْن، وعرضَها متراً ونصفاً دون زيادة أو نقصان، ثمّ جعلتُ أرضيّتها مزيجاً من الحشائش المخضرّة والنرجس والأقحوان، وفَوْقَها رسمتُ غصنَ اللوز وقد تفتّح نوّارُه، وإنّ شكله المائل لموحٍ للناظر الفطنِ أنّ مَيَلانَه راجعٌ إلى ثقل

الحمامة التي رفَّتْ بجناحيْها وفارقتْها قاصدةً العلوَّ الشاهقَ والأفاقَ البعيدة، وكأنّ سماء الزّربيَّة التي تخيَّرتْ لها الزّرقةَ الخالصةَ قد أغرتْها بنشوة الطيران... وقبل كلّ هذا يكفيني فخراً أنّي أبدعتُها، وأنّها شيءٌ منّي، وأنّي أرى فيها ذاتي»...

نهضنا معاً في حركة سريعة حين أومأ إلينا ذلك الرّجلُ الواقفُ أمام الباب، فأمسكتْ بذراعي وهي تنتعل الحذاءَ متأوِّهةً. وكنّا نلحظ بعض النّاس يدخلون القاعة في تدافع خفيفٍ، فدخلنا مع الداخلين، فوجدناها قد غصّتْ بالناس الذين كانوا يدخلونها من باب خلفيٍّ، وقد اضطرنا الأمرُ إلى الجلوس آخرَ القاعة. وما كدنا نستقرّ في أماكننا حتّى وقف الناسُ احتراماً للوزير وأتباعه، وعَلَتْ موجةٌ من التّصفيق. غير أنّ أختي ظلّت تجيل النّظر في بهو القاعة الممتد، وأغلبُ الظنّ أنّها كانت تبحث عن الموضع الذي تُعرض فيه زربيتُها. ولمّا يئستْ انشدّتْ إلى كلام المرأة المهتمّة بتأطير الفتاة الرّيفيّة التي افتتحتِ الاحتفالَ، ورحّبتْ بالحاضرين. ثمّ خطب الوالي فأَوْجز، وخَطَبَ الوزيرُ فأَطْنب، وغنّى فأَطْرب، وأَذْكر أنّ القاعة قد غصّت بالهتاف عندما قال: «إنّه لا ينقصنا المالُ بل تنقصنا الأفكارُ... وإنْ نحن أحسنّا التصرف في كميّةٍ من الصّوف وفي آلة النّسيج نجحنا في القضاء على الفقر وحققنا ثروةً طائلةً...». وكانت أختي تصفّق كلّما تعالت نوبةُ تصفيق، وتَمْسح العرقَ المتصبّب من جبينها. وما إن أنهى الوزيرُ خطابه وتكلّمتْ تلك المرأة قائلةً: «سيقدِّم السيد الوزير بعضَ الجوائز التشجيعيَّة...» حتّى عَلَتْ بعضُ الهمهمات، وساد بعضُ الصمت. أمّا شقيقتي فقد احمرّ وجهُها الشّاحب، وتسلّلتْ إليها بعضُ الرّعشة، فجعلتْ تتحرّك بعصبيَّةٍ في مقعدها. وسرنا نتابع بعض الفتيات وهنّ يصافحن الوالي أو الوزيرَ ويَعُدْنَ إلى أمكنتهنّ بعد تسلّم جوائزهنّ.

ولمّا نودي على أختي تسللتْ من بين الصفوف المتلاصقة، وتوجهتْ إلى حيث يقف الوزيرُ وصحبُه. وما إنْ وصلتْ حتّى تسمّرتْ في مكانها... وضعتْ يديها على رأسها وجعلتْ تحدّق في الأرض. مدّ الوزير يده مصافحاً، فلم تنظر إليه، ولم تمدّ إليه يدَها. ظلّت يدُ الوزير ممدودةً، وظلّت هي على حالها. ضجّت القاعةُ، وكثر الهمسُ، وانفلتتْ بعضُ القهقهات، فحاولت المرأةُ المكلَّفةُ بتأطير الفتاة الرّيفيّة إنقاذَ الموقف المحرج فهمستْ ضاحكة وهي تقرِّب المصدح إلى فمها: «إنّه الخجل... خجلُ الرّيفيّات...». ودنا منها الوالي وكأنّه يقول لها: «هذه جائزتك يا ابنتي... تسلّمي جائزتك». غير أنّها جَثَتْ على ركبتيْها، فظنها البعضُ ستقبّل حذاء الوزير، وقال آخرون إنّها صدمة الجائزة وسيُغمى عليها، وشكّكَ البعضُ الآخرُ في سلامة مداركها العقليّة. غير أنّي أنا الوحيد الذي كنتُ واثقاً ثقةً عمياء أنّ شقيقتي قد رأت زربيّتها الجميلة تحت الأقدام؛ فقد أسرَّتْ إليّ ونحن ننتظر قدوم الحافلة قائلةً: «لقد رأيتُ الوزير يدوس بحذائه على غصن اللوز، ورأيتُ حذاءَ المرأة الثخينة بكعبه العالي فوق رأس الحمامة، أما حذاء الوالي الأسود الضّخم فقد كان يدوس بنقمةٍ على الزّرقة النّاصعة...». ثمّ جعلتْ تجذب الزّربية بحركات عصبيّة تريد سَحْبَها من تحت الأقدام، فتنحّوا عنها مكرَهين. وحينئذ استوت واقفةً وَشَرَعَتْ تضمّ الزّربية إليها وتطوِّقها بذراعيْها، ثمّ وضَعَتْها على رأسها، وكانت قامتُها الصّغيرةُ وهي تتوجّه إلى الباب تعلو وتعظم.

تونس